

فِكَاهَاتُ الْإِيمَانِ

— كيف يصير الجماد انساناً (١) —

وقعت اليّ القصة الآتية وهي رواية واقعية نشرها السيولويس ارنولد في احدى المجالات الادبية وقد حضر كثيراً من وقائعها بنفسه كما يعلم من سياقتها فأحببت ان اطرف بها قرآء الضياء لما فيها من الغرابة وما تشير اليه من ان اعظم المستحيالات في الدنيا اذا تولاها الانسان بالبطيرة الحاذقة وزاولها بالحكمة والصبر الطويل لا تلبث ان تعنوله وتصبح من الممكنات . وهناك امرٌ آخر لعله اهم مما ذكر وهو الدلالة على ما لاخواننا الغربيين من العناية بالانسان والعمل لتخفيف وطأة البؤس عنه وايصال اسباب السعادة اليه ولو حالت الطبيعة دونه باوعر عقبات الشقاء وامنع اسوار اليأس عسى ان يكون ذلك محل اعتبار لآناس منا يستلذون الدعة والتعيم واخوهم الانسان مطروح بين انياب البؤس ومخالب العناء . قال

في صبيحة اليوم الاول من شهر مارس سنة ١٨٩٥ وصل الى دير الراهبات المعروفات براهبات الحكمة ثلاثة اشخاص مسافرين وكانوا قد قطعوا ذلك الليل مشياً على القدم لانهم ضلوا طريق الدير فلم يبلغوه الا في الصباح . وكان هؤلاء الثلاثة من ناحية اللوار السفلى احدهم رجلٌ صانع براميل ومعه نسيبة له وهما يسوقان امامهما ابنة تبلغ نحو عشر سنوات من العمر الا ان هيئتها كانت اشبه بمخلوقٍ وحشي وكانت دائماً قلقة مضطربة لكنها لا تتكلم ولا تسمع لان الطبيعة قد حرمتها اهم حواسها منذ المولد وقدفتها صماء بكاء عمياء تاركة لها حساً واحداً وهو اللمس لتشعر بواسطته بوجود مخلوقات سواها على وجه هذه البسيطة

وان اباهما السيء البخت بحث كثيراً عن ملجأ يجعل فيه هذه المخلوقة الشقية

(١) معربة عن الفرنسية بقلم الياس افندي الغضبان

ليخفف بعض الشيء من شقائها فكان عبثاً يتعب لان ملاجئ الصمّ البكم امتنعت من قبولها لانها عمياء وملاجئ العميان ردّته خائباً لانها صماء بكاءً . واخيراً رقت لحاله اسرة من الاغنياء فقبلتها في منزلها على سبيل التجربة لكنها لم تلبث الا قليلاً في دارهم الرحبة حتى ردّت الى ابيها بحجة انها مختلة الشعور . فاشير عليه بان يرسلها الى ملجأ المعتهوين في مدينة نانت الا انه لخدمة مزاجها خشي ان تزداد حالتها سوءاً فلم يشأ ارسالها . وبينما هو يفكر في امرها بلغه ان ابنة لها من العمر ثلاث سنوات ونصف يقال لها مرتا او برخت اصببت بالعمى والصمم والبكم لرعب اصابها في حرب سنة ١٨٧٠ التي اتقد سعيها بين فرنسا والمانيا وان ابويها وضعها في دير لرناي حيث علمتها واحدة من الراهبات يقال لها سنت مدول التكلم والقرآءة فما علم ان نهض لساعته هو وخالة الفتاة وتوجها بها قاصدين الدير المذكور حتى بلغاه في ذلك الصباح

ولما دخلا الدير علما ان الراهبة سنت مدول قد توفيت في العام الماضي لكنها تركت تلميذة لها تسمى سنت مرغريت خلفتها في تعليم الفتاة المذكورة على نفس الطريقة التي كانت تجري عليها معلمتها وبناءً عليه قبلت رئيسة الدير ابنة صانع البراميل المذكور وكانت تسمى ماري هورتين وسلمتها الى عهدة سنت مرغريت الا انه كان يوجد فرق عظيم بين ماري هذه والفتاة الاخرى فان ماري كانت فاقدة اهم حواسها منذ المولد وتلك فقدتها اذ كان عمرها ثلاث سنوات ونصفاً كما تقدم ولا يخفى ما هناك من التباين ومع كل هذا فان سنت مرغريت قبلت تلميذتها وباشرت الاعتناء بها

ولما استقرت ماري في الدير وشعرت بمفارقة ابويها وخالتها ادركها من الوحشة ما اصبغت له في حالة يرثى لها فكانت دائمة القلق والاضطراب لا تذوق السكينة ولا تعرف الدعة وكانت ذات منظر مخيف ترمي بنفسها على الارض وتقلب من جهة الى اخرى ولا تمل من الصباح واستمرت على هذه الحالة مدة شهرين كانت في اثناهما تراعى بكل اعتناء وكانت الراهبات ينزهنها في حديقة الدير مع باقي

التلميذات الا انه في اثناء ذلك كانت تأتيها نوبة عصبية فتصرعها وتلقيها على الارض خائرة مزبدة فكن في الحال يحملنها ويدخلنها مخدعها بكل احتراس وبالاجمال فان هذه الشقية كانت تقاسي عذاباً احرّ من الجمر وهو عذاب نفسها المسجونة في داخلها وهو اشد المآ من عذاب الجسد

اما سنت مرغريت فع كل هذا لم تحجم قطّ عن تعليم تلميذتها مهما كانت حالتها غريبة وكان لهذه التلميذة ولوع شديد بسكين صغير كان معها من يوم دخولها الدير فلما كانت في احد الايام اخذته معلمتها من يدها فشقت ذلك على الفتاة وظهر عليها الاغتمام فردته اليها ثم انها امسكت كفيها وامرت حرف الواحدة على الاخرى وهي اشارة السكين عند الصمّ البكم . وبعد ساعة عادت فأخذت السكين منها ثانية ولما لم تردّها اليها وضعت احدى كفيها فوق الاخرى مثلما فعلت معها معلمتها تشير الى طلب السكين فعند ما رأت منها معلمتها هذه الاشارة ردت اليها السكين في الحال وهذه اول خطوة خطتها هذه المسكينة اذ ادركت وجود نسبة بين الاشارات والمحسوسات

ومذ ذاك اخذت سنت مرغريت تتابع معها هذه الخطة وكانت قد علمت من خالئها انها تحب البيض كثيراً فأمرت بان تعطى في كل يوم بيضة مع الغداء . ففي احد الايام بعد ما وضعت لها الخادمة البيضة في صحنها اتت معلمتها واخذتها منه ومدّت ماري يدها لتأخذ البيضة فلم تجدها فانقبضت واظهرت علامات الاستياء فامسكت سنت مرغريت بيدها وعمات لها اشارة تدل على البيضة فككرت الاشارة فردتها اليها . وعلى هذا المنوال علمتها عدة اشارات تدل على اصناف المأكولات التي كانت تقدم لها . ثم انها بعد مدة من الزمن كانت تجلسها على المائدة ولا تجعل امامها شيئاً فكانت تطلب هي بالاشارات الطعام الذي تشتهي وهكذا اجتمع لها اول معجم يمكن ان تأخذ منه ما تعبر به عن بعض اغراضها اذ كانت لها اشارات تدل كل منها على معنى مخصوص

ولما لم يكن في الامكان الاستمرار في تعليمها على هذا الوجه وتحميل قوة

حافظتها لكل معنى اشارةً مخصوصة رأت معلمتها ان تبتدئ بتعليمها حروف الهجاء بالاشارات التي كانوا يعلمونها للصم البكم قبل اكتشاف الدلالة على الحروف برمز الشفاه لانها لما كانت فاقدة البصر لم يكن سبيل الى تعليمها الحروف بالرمز فاخذت تعلمها اشارة كل حرف بيديها. وبعدها اتقنت معرفة الحروف جميعها ابتدأت تركب لها مثلاً كلمة سكين من اربع اشارات مختلفة عوض الاشارة الواحدة التي كانت تستعملها قبلاً للدلالة عليها وبهذه الطريقة الجديدة استطاعت ان تفهمها اي اسم ارادت وهي تشير الى كل ما تعرفه

ولم تقف سنت مرغريت عند هذا الحد بل احبت ان تفتح عينها وتعلمها القراءة فشرعت في تعليمها قراءة الحروف على طريقة براي في تعليم العميان وهي ان ترسم لهم الحروف ناتئة على الورق بحيث تُدرك صورها باللمس وينت لها المناسبة بين هذه الحروف والاشارة التي كانت قد تعلمتها فكان هذا مما سهل عليها تناول طريقة براي في أسرع ما يمكن وهكذا تعلمت كلام الصم البكم وقراءة العميان ولم يتم هذا الا بعد ما بذلت سنت مرغريت اقصى مجهودها مع ما اظهرته ماري من الذكاء والنباهة مما لم يكن ينتظر منها

وكانت ماري الى ذلك الوقت قد تعلمت عدة امور الا انها لم تكن تميز الا الاشياء المحسوسة فكان من اهتمام الراهبات بعد ذلك ان يعلمنها المدارك العقلية فبدأت معلمتها ترشدها الى معرفة الصفات والتمييز بينها. ففي بعض الايام ادنت منها تلميذتين من رصيفاتها الواحدة طويلاً القامة والثانية قصيرتها ووقفتهما امام ماري وامرتها ان تضع يدها على رأسيهما وتلاحظ الفرق الحاصل بينهما وبمثل هذا التمرين جعلتها تميز بين الكبر والصغر. ثم ارتأت يوماً ان تجعلها تميز بين الغنى والفقر فانهزت فرصة دخول بعض المارين الى الدير واختصت منهم واحدة من الزائرات كانت مرتدية بالملابس الفاخرة وعليها الخلي الثمينة فاستأذنتها ان تأتي ماري وتلمس ثوبها وحليها ففعلت. ثم مر احد المتسولين وهو حامل جرابه على عاتقه وعليه اثواب مقطعة فاخذت ماري وجعلتها تجس هذا المسكين فاظهرت الاقتباس من ملسه

الضيآء

(١٥٧)

خلافًا لما كان منها عند لمسها المرأة الموسرة وأشارت الى انها لا تحب ان تكون فقيرة وعلى هذه الكيفية فرقت بين الغنى والفقير

ومن مضحك ما اتفق لها انها لما رأت معلمتها ان تكشف لها الغطاء عن حالة الشيخوخة اتت بعجز صمآء بكمآء في الثامنة والثمانين من العمر وامرت ماري ان تلمس وجهها المتغضن وتضع يدها على ظهرها النحني وتقابل بينها وبين وجهها الاملس وقامتها المستوية كالصعدة . وبعد ما تحققت ذلك قالت لها معلمتها انها ستضحي يوماً ما مثل هذه فيتثنى جلد وجهها ويجدودب ظهرها وتحتاج الى ان تمشي على العصا . فلما فهمت الفتاة ذلك اظهرت اشد النفور والابآء وقالت لا لا افي لا اريد ان اصير مثل هذه ولكن احب ان ابقى كما انا وقالت انها متى بلغت سن الشيخوخة ستجتهد بأن تنصب قامتها ولا تتحني . فأخذت سنت مرغريت تقنعها بانها هي ايضاً وباقي الراهبات سيضحين كذلك ولما كانت ماري تود معلمتها جدآ لم تكره اخيراً ان يكون حظها مثل حظها ومن ذلك الحين ابتدأت تعلمها بعض الاديات الضرورية

واخيراً رأت سنت مرغريت انه من اللازم ان تكشف لها عن حالة الموت فاعتمت فرصة وفاة احدى الراهبات التي كانت تتولى ادارة المطبخ وكانت ماري مولعة بحبها واخذت تحدثها عن موتها بقدر ما استطاعت ايصاله الى فهمها وقالت لها انها نامت ولن تفيق من نومتها فيما بعد ولن تعود الى ما كانت عليه من تدير المطبخ ابداً . ثم ادنتها من جنبها وامرتها ان تجسها فلما وضعت يدها عليها وشعرت بيزودة جسمها الهامد اقشعر جلدتها وظهرت عليها علائم الدهش والاستغراب .

واذ ذاك ذكرت لها معلمتها انها هي ايضاً سيصيدها مثل ما اصاب تلك الراهبة فوقع ذلك على ماري اعظم مما وقع عليها امر الشيخوخة واظهرت اشد النفار والاقباض فأخذت سنت مرغريت تلتطف في تسكين جأشها وما ثار في نفسها من عوامل الملح ولكي تخفف عنها اشجانها شرعت تبين لها انها هي ايضاً ستوت وانها تلتقي هذا الفكر بنفس راضية فلم تجد الفتاة بدآ من التسليم لانها لم تكن تشك فيما تقوله لها معلمتها . ثم انه بعد مدة اخترمت المنية راهبة اخرى فصنعت معها معلمتها كما صنعت

في المرة الاولى واذ ذلك علمت ان الموت لم يكن خاصاً بتلك الراهبة وانه سيتناول كل واحدة من الراهبات في نوبتها

اما سنت مرغريت فلم تشأ ان تقف ماري عند هذا الحد ولا تدرك من الموت الا ظواهره بل انها احبت ان تعلمها بوجود النفس . ففي ذات يوم ورد على ماري كتاب من والدها فقرحت به فرحاً عظيماً وقبلته مراراً فأخذت مرغريت تسألها هل تحب والدها وهل تحب خالتها واختها الصغيرة فكانت تجيبها كل مرة انها تحبهم كثيراً . فقالت سنت مرغريت وبماذا تحبينهم هل تحبينهم بيديك . لا بدون شك وكذلك لا تحبينهم برجليك ولكن شيئاً داخل صدرك هو الذي يحبهم وهو غير الجسد ويسمونه النفس . وعند الموت تفترق النفس عن الجسد وهكذا لما ماتت تلك الراهبة التي لمست جنتها الباردة فان نفسها التي كانت تحبك انتقلت الى مكان آخر وهي تحيا دائماً ولا تزال تحبك . وعلى هذا الاسلوب استطاعت ان تولد في ذهن الفتاة معرفة الاشياء الغير الهولية ولم يبق الا ان تنور قلبها بمعرفة العزة الالهية وكانت سنت مرغريت قد اطعمتها على عدة اشياء مما يجري حولها فكانت مرة تأخذ يدها وتدخلها مخبز الدير وتفهمها كيفية العجن والخبز وتارة تأخذها الى معمل النجار فتجعلها تلمس الاخشاب والادوات التي يصنعها وطوراً تقودها الى مواضع البنائين وتضع يدها على الحجارة والجدران التي يبنونها وتشرح لها كل صنف من المصنوعات وكيفية صنعه على قدر ما تستطيع ايصاله الى ذهنها

وان ماري كانت في احد الايام الباردة في حديقة الدير فكانت تحب كثيراً ان تندفأ بجمرة الشمس وتمتد يديها نحوها كأنها تحاول امساكها واحياناً كانت تحاول التسلق على الشجر لتدنو منها . ورأتها معامتها كذلك فقالت لها هل تعلمين من صنع الشمس وهل تظنين انه النجار . قالت لا ولكن الخباز لانها كانت تشعر بالحرارة عينها عند ما كانت تدنو من الفرن . فقالت لها مرغريت كلا ان الخباز لا يقدر ان يصنع الشمس بل الذي ابدعها هو اكبر من الخباز وهو اكبر من رئيسة الدير واعظم من المطران الذي زار ذلك اليوم الدير . وهو اقدر واعلم من جميع

المخلوقات وليس له جسد ولكنه مثل النفس وهو يعرفك ويراك ويحبك كما يعرف ويرى ويحب جميع الناس واسمهُ الله . وهكذا بذكر درجات الاشخاص الذين تعرفهم ماري استطاعت معلمتها ان تبلغها الى اعلى درجة من هذا السلم وهي درجة العلي باري الخليفة

وبعد ذلك ابتدأت تعص عليها سيرة خلقه العالم ووصف الكواكب والقمر بما ليس في طاقتها ان تبصره في هذه الدنيا ولا تشعر بوجوده وبالتدرج تعلمت حوادث التاريخ المقدس وكانت ترتاح اليها وتعجب بها اشدّ الإعجاب كما يحدث عادة لجميع الاولاد

وان سنت مرغريت حرصاً على بقاء الخطة التي جرت عليها في تعليم هذه الابنة التي اتاها الدهر باعظم رزاياه دونت كيفية تعليمها في سجل الدير لتبقى محفوظة. غير ان الامر ليس متوقفاً على عرفان الخطة المتبعة ولكن ذلك يقتضي من الارادة والصبر ما لا يقدر بوصف . وكانت سنت مرغريت تستعين بتلميذة من تلميذات الدير الصم البكم فكانت تساعدنا في تعليم ماري الدروس التي كانت تعطيها اياها وكان كل من نظر الى هذه الفتاة السيئة البخت تنفطر احشأؤه حزناً واسقماً ولا سيما اذ يراها ابنة في سن الخامسة عشرة على جانب عظيم من الجبال ذات قوام رشيق ووجه وسيم وعينين نجلاوين الا انها فاقدة اهم حواسها فهي بالحقيقة حالة تدعي الفؤاد

واستمرت ماري على تعاطي دروسها وكانت معلمتها ما عدا التعليم المسيحي والتاريخ المقدس اللذين كانت تقرأها قد شرعت في تدريسها صرف اللغة ونحوها وبواسطة خرائط جغرافية كبيرة مصورة بالرسوم الناتة على اصطلاح براي كانت تعلمها الجغرافية فكانت ترتاح اليها جداً . وعند ما ينتهي وقت مدرستها كانت تأخذ بيدها وتأتي بها معمل التلميذات الصم البكم وكن يشتغلن بعمل المصنوعات اليدوية التي تدهش النواظر فكانت تتعلم هناك صنعة حياكة الجوارب وفي اثناء العمل كانت تتحدث مع رصيفاتها بتوقيع الكلمات على اناملهن ويقول راوي هذه

القصة انه رأى من شغل يديها شالاً وعدة جوارب

قال وقد رأيت في احدى زوايا ذلك المعمل منظرًا عجيبًا فاني رأيت هناك الصديقة الاولى للماري وهي مرتا تليذة سنت مدول التي ذكرت انها توفيت قبل دخول ماري الدير بسنة وكانت مباشرة في اعداد الجائزة التي كان يراد اهداؤها للماري في تلك السنة. والى جانبها عجوزٌ شمطاء الشعر صماء بكاء تقرأ بعينها في انجيل صغير باللغة الفرنسية ثم بواسطة الحروف الاشارية كانت توقع كل جملة تقرأها على يدي مرتا وهذه بعد ان تكرر الجملة على يدي العجوز حذرًا من الغلط تعود فترسم الجملة نفسها رسماً ناتئاً بحسب طريقة براى على كتاب ذي صفحات خالية وهو الكتاب الذي كانت تريد ان تهديه للماري. فلا جرم ان ذلك ضربٌ من الاملاء الذي لم يسبق له مثل في الدنيا فالملمية صماء بكاء والكتابة صماء بكاء عمياء والمهدى لها الكتاب هي ايضاً صماء بكاء عمياء (ويا عجبا كم وكم من عندنا من الناس الكاملي الحواس وهم لا يدرون من القراءة والكتابة امرًا)

ومن غريب ما يرى من المشاهد منظر هاتين الصديقتين اي مرتا وماري حين تشرعان في الحديث فانك تراهما واقفتين احدهما بازاء الاخرى واناملها تنقبض وتفتح وتبادل التوقيع بأسرع من لمعان البرق ووجوههما تنطلق بالبشر مرة بعد اخرى لترجم عن حركات انفسهما وما يخامرهما من الوجدان المتبادل. وكانت ماري تحادث بأناملها اكثر رصيفاتها من الصم البكم الا انها لم يكن يجولها الحديث الا مع صديقتها مرتا ومعلمتها سنت مرغريت. وكانت سنت مرغريت في بدء تعليمها لا تلقنها الا الجدة لكنها اخيراً ابتدأت تمازحها لانها رأتها تضحك وتشرح من المزاح وعلى هذا المنوال نقلت سنت مرغريت هذه المخلوقة الغربية من عالم الجماد الى عالم الانسان. انتهى

